

١

سورية ومهد الجنس البشري

قال اتيان لامي (١) ما تعريبه: « ان في العالم بلاداً تتصافح فيها اقطار اوروبة وآسية وافريقية . وتعيش بالالفة على السواحل نفسها . هي بلاد برية وبحرية معاً . هي سوق جامعة لرافق منة مدينة ومرفاً تتبادل فيه القارات الثلاث محصولاتها المتنوعة . هناك تتصلب وتتوارد الطرق التجارية التي فتحتها العالم القديم . هي اقدم موطن يعاين فيه الانسان آثار اقدمه . فيها نشأت اخص الديانات الشائعة . وخلاصة القول لست تجد حينما نظرت بلداً اصغر من هذا في مساحته قد اختلطت فيه وتراحت اهم اكثر وديانات اعظم وآثار اخطر »

نعم القول يسرنا ان ننقله عن كاتب بليغ فنحلي به مطلع هذه الدروس التي افردناها لسورية وآثارها

ولا وراء ان سورية قبل كل بلاد القدم بلاد الزمن السابق للتاريخ . فليت شعري أليس لها علاقة مع أول منازل البشر ؟ ان الانسان منذ الرف من السنين قد طبع في ذهنه ذكر فردوس ارضي ظهر فيه جنسه فاين هي يا بُرى هذه جنة عدن ؟ افي العراق ؟ افي سهول ما بين النهرين ؟ افي غوطة دمشق وبقعتها الفيحاء كما ارتأى القديس اغناطيوس منشئ الرهبانية اليسوعية في كتاب رياضاته الروحية ؟ هذه الآراء وغيرها قد كتبت فيها التأليف الواسعة بل تجف الحابر قبل ان يُستقصى فيها البحث او يُكشف سرها بالتام امّا كون الفردوس في تخوم سورية فهذا احد الآراء الثمانين التي قال بها الكتبة (٢) يؤيده كون الفرات يجري في بعض جهات هذه البلاد

(١) في مقدمة كتابه المضمون « La France du Levant »

(٢) راجع الصفحة ١٠ من كتاب للعلامة دلتش حيث أوسع في اقوال العلماء عن مكان

الفردوس والصفحة ٤٢ (F. Delitzsch : Wo lag das Paradies ? 43)

في النصف الاول من القرن السابق تزل عند لحف لبنان شاعر كان اصاب الشهرة في قومه يدعى لامرتين . فاعجبه طيب هواء البلاد فأتخذ بيروت له موطنًا وكان يخرج منها الى انحاء الشام ليزورها ويدرس آثارها . ففي بعض مسيره رقي أكمة الاشرفية فوق كنيسة مارمطري فاجال نظره مليًا في المشاهد التي كانت تحدد به فاخذت بمجامع قلبه وكادت تسحر له . فكان يرى البحر حول بيروت من جهاتها الثلاث كأنه المنطقة المزركشة بالارجوان والذهب . وكان ينظر على شماله لبنان الناطح بقرونيه السحاب وبين هذا الجبل وموقف الشاعر كانت تنبسط السهول السندسية الغنية بزارعها منها غابات الزيتون عند شوفيات وغابة الصنوبر . وكان يجد في ارمال بيروت صورة ملطفة لمفاوز بلاد الصحراء . نعم ان في العالم محاسن اجمل وابدع ولكن أوجد في العالم امكنة عديدة جمع فيها الله كل هذه المناظر المتباينة والروى الفاتنة في دائرة ضيقة كهذه ؟ ذلك ما شغل فكر الشاعر زمنا طويلا فبقي غائصا في تأملاته الى ان عاد الى نفسه فهتف : « حقيقة ان الله قد وضع في هذا المكان اكثر مما يمكنه الانسان ان يتصوره » فاني كنت اتوق الى مرأى فردوس عدن فيها هوذا بعينه (١) .

لا أريد ان احكم في هذا القول اهو عين صواب او هو بالحري وصف تخيلي لشاعر متفنن وليست غايتي ان أنسب له حل هذا المشكل العويص . ولكن يمكننا ان نعتبر هذا البحث من وجه آخر فنحصره في حدود معلومة . ولا يخفى عليّ بأنه يلذ القراء ان يستقروا اخبار الشعوب جيلا بعد جيل ليعرفوا مهد الجنس البشري ويتبينوا موقع الفردوس الارضي . لكن هذا البحث يخرج عن حيز المكنات وانما نستطيع ان تقتصر في البحث عما ورد في تاريخ السلاتين العظيمتين من السلالات البشرية اللتين لعبتا في العالم اشرف الادوار زيدا الامم السامية والهندوآورية فنقول :

ان المذهب الشائع بين العلماء في موطن بني سام الاصلي انهم ظهوروا في شبه الجزيرة التي موقعها بين خليج العجم والبحر الهندي والبحر المتوسط اعني في مربع عظيم تشغل سورية جهة الغربية . لانجهل ان غيرهم من المستشرقين يجعلون اصل الساميين في افريقية ويزعمون انهم تحطوا منها الى آسية . فرأيهم هذا يستدعي بحثا لا

(١) راجع رحلة لامرتين (Lamartine: Voyage en Orient, ed. Hachette, I, 434)

يسعنا الآن الخوض في غمره . وما لا شبهة فيه ان مهد الساميين التاريخي حيث يظهرون في نور التاريخ فنتبع اعمالهم واخبارهم دون ريب ونغيز خواصهم التي تفرزهم عن غيرهم من الامم في القرون التالية قد كان موقعه في الربع الكبير الذي ذكرناه آنفاً . سواء كان هذا المقام محلهم الاصلي ام لا ومنه انتشروا في بقية النحاء آسية المتقدمة ثم الى كل النحاء المعمور . ومن اراد ان يتجاوز هذه الحدود التاريخية سار في مجاهل على غير هدى وتعرض للضلال والعثرة . ولعل تقدم العلوم يأتينا يوماً بوسائل جديدة لتلطيف هذه الظلمات الكشيفة (١)

اماً السلالة الهندو اورية التي تهئنا من وجوه متعددة فان رأي العلماء في اصلها كرايهم في الساميين . فأنهم لا يتفقون في تعيين مهدهم الاول وان كانوا يجعلونه في آسية ليس بعيداً من البلاد التي سبق القول فيها بأن الساميين اخوة الآريين سكنوها في طورهم التاريخي

ولبيان ذلك نكتفي بما يأتي وهو ان العلماء مهما تقدموا في الدروس التاريخية المتعلقة بنشأة الجنس البشري زاد ايضاً توجه ابصارهم الى ذلك القسم من آسية المتقدمة الذي سورى تعدد كركز له فيجعلون فيه مهد الانسانية . والحق يقال انك ان تصفحت تاريخ الشعوب اربعة آلاف سنة قبل المسيح وجدت البلاد الغربية متسكة في ظلمة الهمجية بينما نرى الجهات الواقعة في شرقي البحر المتوسط مزدهرة بنور التمدن اعني وادي النيل والاصقاع الاسيوية المجاورة له من سواحل الشام وضاف الفرات ودجلة . فيكون منشأ التمدن جنوبي غربي آسية ومنه انتشر جيلاً بعد جيل الى بقية البلاد حتى عم الامم المتتورة (٢) . وبعبارة اخرى يصح القول بأن سورى كانت في مركز دائرة كبيرة من البلاد التي ألقت العالم القديم حيث كانت نشأة التمدن الاول في المسكونة وان عجزنا عن بيان وقوع الفردوس فيها فكفاها فخراً انها كانت مهد تاريخ البشر .

(١) راجع ما ورد في هذا الموضوع في تأليف العلماء الآتي ذكرهم : مسهرو في تاريخ الشعوب الشرقية (Maspéro : Hist. anc. des peuples de l'Orient, I. ١٢٥) ثم مقالة فنكلر في شعوب آسية المتقدمة (H. Winckler : Die Völker Vorderasiens) في مجموعة « Der alte Orient » ثم كتاب غريم (Grimme : Mohammed, 6)

(٢) راجع جغرافية روكلو (Elisée Reclus : Asie Antérieure, 1, 2)

ومن ثمّ قول ايضاً عن سورّية أنّها من الاقطار التي استوطنتها المستعمرات البشريّة الاولى إنّ لم تكن أوّل ارض وطنها الانسان بقدّمه . وما لا ريب فيه أنّ سورّية قد تفرّدت مع بلاد بابل والقطر المصري بكونها حفظت اقدم ما وُجد من الآثار المنبئة بوجود الانسان الناطقة باعماله الاولى . وهو لعمرى مجدّ اثيل احزته لها في ميدان لم يجارها فيه الا القليل

٢

موقع سورّية الجغرافي

لسورّية فضلاً عن كونها من مواطن البشريّة الاولى فضل آخر وهو موقعها العجيب في وسط المعمر . فإنّها قائمة في حدود الشرق كالحارس يصونها وهي مع ذلك قسم صالح من حوض البحر المتوسط الذي يوصلها باقطار الغرب وتزلها منفصلة عن آسية المتقدّمة بجبال طورس الشاخنة وبصحاري جزيرة العرب يصلها بافريقية برزخ دقيق برزخ سويس واقعة على سواحل البحر المتوسط الذي كان يُعدّ الى اواسط القرن السادس عشر كبحر المسكونة كلها فأسرّع سكّان الشام وسلّكوا هذه الطريق اللاحبة ودخلوا ذلك الباب الواسع المفتوح في وجه نشاطهم وتقاطروا الى الجزائر النازحة والبلاد السحيقة الواقعة في الغرب فطبعوا فيها صورة تمدّنهم وآثار حياتهم . فكأنّه تبارك وتعالى لم يجعل سورّية على جوار البحر المتوسط الذي اضحى منذ ٣٠٠٠ سنة من اخصّ سُبل التمدّن الا ليجعل اهلها في مقدّمة رواد المدنيّة ونقّة الألفة فقاموا بهذه المهمة احسن قيام مدّة نيّف والّف سنة

قد قلّد الله كلّ شعب دعوةً يفيد بها الهيئة الاجتماعية . امّا خاصّة الفينيقيين واهل سورّية فإنّ دعوتهم انما كانت نشر التمدّن . نعم انّ التمدّن بلغ في بابل واشور مبلغاً اعظم منه في انحاء الشام كما انّ عقول الاشوريين لم تكن أقلّ توقّداً من جيرانهم .